الفصل الرابع

توضيح الصورة ومنع الغش

أحيانًا يكون الجهاد العلمى أسبق عند الله ، وأجدى على الناس من الجهاد العسكرى ، فإن تصحيح المعرفة ينصف الحقيقة ، ويحصِّن النفوس ، ويضبط مسار الأمم إلى أهدافها .

وفى عصرنا هذا راقبت معاهدات ثقافية بين الدول الكبرى والصغرى فشعرت كأن الأمم الغالبة تريد إحكام قبضتها على الأمم المغلوبة بفرض سيطرتها المعنوية على الدراسة والأدب وأنواع العلوم والفنون ، وهى إن أفلحت فى ذلك كتبت هزيمة الأبد على الأمم المغلوبة ...

من أجل ذلك دققت النظر فى المعارف الشائعة بيننا ، والتى تكوِّن شخصيتنا الفردية والاجتماعية ؛ فإذا لم أجد لأى قضية شاهدين من الكتاب والسنة ، فقدت قيمتها ، وقد أبحث بعد ذلك عن الطريقة التى تسللت بها إلى معارفنا ، فربما وجدت إسرائيليات أو يونانيات ، أو جاهليات عربية قديمة !.

وقد ينخدع رجال كبار بهذا الدخن ويتورطون فى إقراره ! كما ذكر بعضهم أن عمر كان ينهى عن تعليم النساء الخط (!)، وهذا أثر منكر ، وقد كانت حفصة ابنته رضى الله عنها كاتبة ، فلم علّمها ، أو تركها تتعلم الخط ؟ إذا كان ذلك لا يسوغ ؟!.

ولم يبق إلا أن يقول أحمق : تعلمت الكتابة فى الجاهلية ، فلما جاء الإسلام نهى عن ذلك ؛ لأن الأمية جزء من غاياته ورسالاته ! !

إننى ألفت النظر إلى أن المواريث الشائعة بيننا تتضمن أمورًا هى الكفر بعينه ..

لقد اطلعت على مقتطفات من الفتوحات المكية لابن عربى فقلت : كان ينبغى أن تسمى الفتوحات الرومية ! فإن الفاتيكان لا يطمع أن يدسَّ بيننا أكثر شرًا من هذا اللغو ...

يقول ابن عربى فى الباب ٣٣٣ بعد تمهيد طويل : « إن الأصل السارى فى بروز أعيان الممكنات هو التثليث ! والأحد لا يكون عنه شىء البتة ! وأول الأعداد الاثنان ، ولا يكون عن الاثنين شىء أصلاً ، ما لم يكن ثالث يربط بعضهما ببعض فحينئذ يتكون عنها ما يتكوّن ، فالإيجاد عن الثلاثة والثلاثة أول الأفراد .. » .

لم أقرأ فى حياتى أقبح من هذا السخف ، ولا ريب أن الكلام تسويغ ممجوج لفكرة الثالوث المسيحى ، وابن عربى مع عصابات الباطنية والحشاشين الذين بذرتهم أوروبا فى دار الإسلام أيام الحروب الصليبية الأولى ؛ كانوا طلائع هذا الغزو الخسيس ..

من قال : إن الواحد لا يكون منه شىء أصلاً ؟ « ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ .. »[1] وفى دنيا الناس يسأل كل واحد عما يفعل ويترك ، ويتفاوت آحاد البشر فى قدراتهم وخبراتهم حتى يقول ابن دريد :

والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف إن أمر عنى !

ومن قال : إن أول العدد الاثنان ؟ وهل تكوَّن الاثنان إلا من ازدواج الواحد ؟! ثم من قال : إن الاثنين لا يكون عنهما شىء أصلاً ؟ وإذا كان هو لم ينشأ من أمه وأبيه معًا فمم نشأ ؟!!.

ولكن ابن عربى يمضى فى سخافاته فيقول ـ عن عقيدة التثليث ـ: من

---

(١) سورة الزمر: ٦٢ــ٦٣.

العابدين من يجمع هذا كله فى صورة عبادته وصورة عمله ، فيسرى التثليث فى جميع الأمور لوجوده فى الأصل ! !.

ويبلغ ابن عربى قمة التغفيل عندما يقول : إن الله سمى القائل بالتثليث كافرًا أى ساترًا بيان حقيقة الأمر فقال : «لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة»[1] فالقائل بالتثليث ستر ما ينبغى أن يكشف صورته ، ولو بيّن لقال هذا الذى قلناه ..» ! !.

واكتفى الأحمق بذكر الجملة الأولى من الآية ، ولم يُردفْها بالجملة التالية : «وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ»[1] وذلك للتلبيس المقصود !.

هذا الكلام المقبوح موجود فيما يسمَّى بالتصوف الإسلامى ! وعوام المسلمين وخواصهم يشعرون بالمصدر النصرانى الواضح لهذا الكلام ..

ومما يلفت النظر أن معهد الدراسات الإسلامية بجامعة السوربون قد اتفق مع إحدى العواصم العربية على طبع الفتوحات واخراجها فى بضعة وثلاثين جزءًا[2] .

لحساب مَنْ يتم هذا العمل فى هذه الأيام العصيبة ؟ على أية حال نحن نريد العودة بأمتنا إلى ينابيعها العلمية الوثيقة ، ونناشدها ألا تقبل من التوجيهات إلا ما اعتمد على الوحى الصادق ، ولدينا ولله الحمد كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وسنة توافر الحفاظ والفقهاء على ضبطها على نحو لم يقع نظيره لتراث بشر..

إنه مع مطالع القرن الخامس عشر تحاول خرافات الكتابيين كما تحاول خرافات الوثنيين أن تشيع بيننا مقالات وأحكامًا تزرى بحضارتنا ورسالتنا ، وتضلل الصحوة الإسلامية التى تريد رفع مستوى الجماهير ، ووصل حاضرهم بماضيهم الأول ..

ونحن بالمرصاد لهذه المحاولات أيًّا كان مصدرها ، بيد أننا نلفت الأنظار إلى

---

(١) سورة المائدة : ٧٣ .

(٢) صدرت فعلاً ثمانية أجزاء من هذا المؤلف .

قصة الدبة التى قتلت صاحبها ، فكم يعانى ديننا من ذريات هذا الدب المخلص الجهول ..! كم نعانى من أنصاف متعلمين لا يتقون الله فى النصف الذى عرفوا ولا فى النصف الذى جهلوا ! يريدون بقاء الأمة فى ظلام التخلّف والهوان .

* * *

الغش الثقافى وباء تعرضت له الأمة الإسلامية قديمًا وحديثًا ، ثم يتصدى له الراسخون فى العلم فيكسرون شوكته ويكشفون حقيقته ، فإما قطعوا دابره ونجت الأمة منه ! وإما بقيت له ذيول تختفى هنا وهناك ؛ لتنفث شرها بين أولى الغفلة حتى يتيقظ لها العلماء العدول فيتم القضاء عليها ويستريح المسلمون منها ..

وتختلف أنواع الغش باختلاف العصور ، ولكنها تصدر عن علة واحدة ، الذهول عن الكتاب الكريم ، والعجز عن تدبره والإحاطة بأحكامه ودلالاته ..

قديمًا قال ابن عربى : إن فرعون تاب وقبل الله توبته ، فمات طاهرًا وذهب إلى الله مسلمًا ! !.

فهل يقول هذا الكلام رجل قرأ قوله تعالى عن فرعون : « يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ »[1] .

هل يتقدم قومه ليسلمهم إلى مالك خازن النار ، ثم يعود مكرمًا ليدخل الجنة ؟!

إن مياه البحر الأحمر والأبيض والأسود لن تطهر فرعون أبدًا مهما قال : « ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ ... »[2].

وابن عربى عابث كذوب ... ولنترك هذا النموذج القديم للغش العلمى ، ولنضرب مثلاً بغش جديد ، رجل يتزعم حركة إسلامية كثيرة الصياح يقول : إن الإسلام يقوم على الحرب الهجومية ، ويعتمد على التوسع العسكرى ، ويجعل السيف أساس علاقاته بالآخرين ، ثم يستدلّ على رأيه الغريب بأن الرسول خرج

---

(١) سورة هود: ٩٨-٩٩.

(٢) سورة يونس: ٩٠.

من المدينة مغيرًا على قافلة قريش ، وكان يقيم بها آمنًا ، وما أخرجه إلا التعرض العسكرى للعدو ! !.

وهذا كلام فى غاية الغثاثة والبطلان ، فالمسلمون فى المدينة أُخرجوا من ديارهم وأموالهم وصودرت عقائدهم وعباداتهم ، واستبيح إخوانهم فى الدين وأهدرت حقوقهم !.

فكيف يوصف تعرضهم لأعداء الله الذين فعلوا ذلك كله بأنه حرب هجومية ؟! لم يبق إلا وصفهم بأنهم إرهابيون كما يتهم اليهود الآن العرب ! بعد ما طردوهم من أرضهم ! !.

المصيبة أن بعض المتحدثين فى الإسلام لديهم مقدار هائل من قصر النظر وقلة الوعى ! والأدهى من ذلك أن يتحول هذا الفكر السقيم إلى مبدأ تؤلف فيه كتب وتنبنى عليه مواقف !.

أكثر هؤلاء لا يعرفون مكانة الأسرة فى المجتمع ، ولا مكانة المرأة فى دعم الأسرة ، والشائعة الكبرى التى يطلقونها عن الإسلام أنه يحتقر الأنوثة ، ويضنُّ عليها بالحقوق الطبيعية للإنسان السوىّ ، حتى شاع فى أرجاء الدنيا أن الإسلام عدو المرأة وظالمها وواضع العقبات فى طريقها إن أرادت ارتقاء ...

ونساء العالم يشعرن كأن الإسلام يكنُّ لهن البغضاء ، ويرى الموت أستر لهن من الحياة !.

إن محمدًا أرسل رحمة للعالمين ، ونصيب المرأة من هذه الرحمة العامة أن تنال من العلم ما يرفع مستواها الإنسانى ، وأن يكون لها فى المسجد ما يرفع مستواها الروحى ، وأن يكون لها من الوعى الاجتماعى ما يعينها على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما افترض ذلك القرآن الكريم ..

أما أن تنشأ فى الحلية كى تكون محظية فحلٍ وحسب ! فذلك منطق حيوانىّ ما عرفه سلفنا الأول ، وإن نادى به أناس يدّعون السلفية زورًا ...

فى كتابنا الكريم ما يضع العلاقات الإنسانية على دعامة ثابتة من التآخى والتراحم . ومع أنى فى هذا العصر أكره زواج المسلم من غير مسلمة إلا أنى

لا أستطيع إنكار حكم ثابت فى دينى ينشئ علاقة حب ومودة بين مسلم وكتابية تعيش بين أحضانه .. ! !.

وليس هنا مكان للإطالة فى فهم هذه القضية ، كل ما أريد شرحه أن الله خلقنا شعوبًا وقبائل لنتعارف لا لنتشاكس ، وعندما يقترب بعضنا من بعض نُرى الآخرين من شمائلنا ما يحببنا إليهم ، وما يقفهم على كنوز الرحمة والسماحة التى زخر بها ديننا !.

وذلك ما يزيل السدود أمام إقبالهم عليه وإعجابهم به !.

والواقع أن فضائل الصحابة والتابعين هى التى أغرت الشعوب باعتناق الإسلام ، بعد ما انكسر الاستعمار الرومانى الجاثم على صدورها .

نعم إن سلفنا فتح البلاد بأخلاقه الدمثة ، ومسالكه الزاكية ، ولم ير فى الفاتحين إلا محررين نجدوا إخوانهم المظلومين وكسروا قيودهم وردوا إليهم حرياتهم المسروقة ..

هؤلاء هم سلفنا الذين أغرت أحوالهم بدخول الإسلام ..

أما اليوم فماذا ترى ؟ جهال يهدِّدون العلماء ! وأصحاب عُقد يتوعدون أصحاب الفطر السليمة ، وعوامّ سيوفهم خشبية يخيفون من فجرّوا الذرّة ، وأميون ربما قدروا على فك الخط يهددون نساء يحملن أعلى الإجازات الدراسية ..

أعرف أن حضارة أوروبا وأمريكا تحتوى على مباذل شائنة ، إن مؤرخًا إنكليزيًّا مثل «توينبى» حذر قومه من التفسخ والهلاك بهذه المباذل التى تشيع ! ما لنا ولهذه الهنات ؟!.

إننا نحاربها بداهة ، لكننا لا نستبدل جاهلية عربية بجاهلية أوروبية !

كلتاهما شر ، وإنما ننشد الإسلام وحده لنضع الطيب مكان الخبيث .

والإسلام لا يعرفه قوم محبوسون فى سجن التخلّف الذى أودعوا فيه من أيام هزائمنا الثقافية والسياسية إلى اليوم !.

ولن أسأم تكرار هذه الجملة الواعية :

«دين الله أشرف من أن يؤخذ عن أفواه الحمقى» .

شـرود عن الصـواب

ضرام الشهوات البادى فى الحضارة الغربية لا علاقة له بدين المسيح ، ولا سيرة الحواريين ! إن الأنبياء كلهم ـ وليس المسيح وحده ـ دعاة إلى التسامى والاستعفاف ، ويستحيل أن يقبلوا الرذيلة أو يهادنوها ...

وما روى من تراخى المسيح فى رجم امرأة متهمة ، فهمه قصار النظر على غير وجهه . إنه ليس إقرارًا للجريمة ، ولا استهانة بها ، إنه رحمة بالضعف البشرى ، وإعطاء فرصة للتوبة ، وهو ازدراء لمسالك اليهود الذين ينطوون على أمراض نفسية عفنة ، ثم يتظاهرون بالغيرة على صور التدين ، والنقمة على أخطاء العاثرين ...

من أجل ذلك قال للكهنة المرائين : «من كان منكم بلا خطيئة فليتقدم لرجمها ..» ! !.

إن كلمة عيسى تنبجس من نفس الينبوع الذى جعل نبينا عليه الصلاة والسلام يراجع المقر بخطيئته ، ويلقّنه العودة عن إقراره ! !.

والحق أن هناك جماهير من المتدينين على حظ كبير من تحجرُّ العاطفة والرغبة فى البطش ، والشماتة فى المخطئين ، وهذا كله ناشئٌ عن اضطراب الصلة بالله ، والفقه فى دينه ...

وعند النظر فى أسباب الفساد الجنسى الذى يسود الغرب ، لا نرى إلا المواريث اليونانية والرومانية التى سادت أوروبا ثم اتسعت دائرتها فى العصور الحديثة ..

لقد كان فلاسفة اليونان نماذج محقورة للانحلال والفسوق ، وكان جبل الأولمب الذى تسكنه آلهتهم المزعومة مشحونًا بأنواع الغرام الحرام والمطاردات الهابطة ، ولم يكن الرومان أشرف حالاً ، بل معروف أن الرومان لما تنصروا لم ينتقلوا إلى الدين السماوى المعروف يومئذ ، بل نقلوا هم المسيحية إلى مجتمعهم وصبّوها فى قوالبهم القديمة ، فلم يصلحوا هم بها بل أفسدوا تعاليمها ...

وعندما ملكت الحضارة الحديثة العالم ، وأعانها تفوقها الصناعى والإدارى

على الانفراد بزمام الدنيا ، نشرت مسالكها الجنسية بين الناس ، وجعلت جاهلية روما وأثينا تسود الأرض ..

وهكذا شاع الدَّنَسُ ، ورأينا عروضًا منكرة للجسد البشرى ، وفنونًا من التبرج تتجدد مع اختلاف الليل والنهار ، بل كادت الصلاة الحرام تكون مسالك عادية يُعترف بها ويُستغرب اعتراضها ..

وأعان على قبول هذه الأوضاع أمران : أولهما التفوق العلمى الباهر الذى صاحب حضارة الغرب ، والآخر فقدان بديل عملى محترم تطبقه البلاد الإسلامية ! بديل يتفق مع فطرة الله فى الأنفس ، ووحيه الصادق فى تنظيم المجتمع البشرى وتزكيته ...

بل إن البعض وجد الصورة الغربية أجدر بالبقاء من الصورة الإسلامية وهذا شرود هائل عن الصواب يشترك فى وزره المقلدون للغرب الجاهلون بفهم الإسلام من كتاب الله وسنة رسوله .

إن الصورة التى حُسبت إسلامًا وما هى بإسلام أن المرأة كائن ناقص مُتَّهَمٌ ، يحبس فى البيت محرومًا من العلم والارتقاء ، ومن كل نشاط اجتماعى أو سياسى يمس حاضر الإسلام ومستقبله ..

لا ترى أحدًا ولا يراها أحد ، لا تعرف طريقًا إلى مسجد أو مدرسة ، لا يسمح لها بعمل ذكىّ جادّ فى أى أفق من آفاق الحياة ، لا مجال لها فى أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو جهاد عن الإسلام حين يغار عليه ! ! .

لا تُسمع شهادتها فى الدماء والأعراض ! ولا تُقبل لها ولاية فى أمر من الأمور ! ! .

وعند الزواج لا يسمع لها رأى ، وقد تبلغ مرحلة العنوسة ثم سِنّ اليأس وأولياؤها يرون أن الكفء ـ فى نظرهم ـ لم يتقدم لها ، فتشيخ وتموت عذراء ! ! .

وعند التأمل نرى تقاليد الرياء تجعل الزواج محنة قاصمة للظهر ـ والرياء شرك ـ وقد استقرت هذه التقاليد الجائرة فى أرض الإسلام شرقًا وغربًا فجعلت

الشباب لا يستطيع الحلال إلا بشق الأنفس ...

ولذلك عندما يذهب هؤلاء الشبان إلى أوروبا وأمريكا يتحولون إلى ذئاب مسعورة وراء الشهوات الميسرة ، ومادام باب الحلال قد أحكم رتاجه ؛ فقد تمهَّدَ إلى الحرام ألف طريق !!.

ويظهر أن المرأة ـ وفق هذه التقاليد الجائرة ـ يستحيل أن تكون مشرفة على أولادها من ناحية الواجبات المدرسية ، أو مشيرة عليهم برأى سديد ! كيف ؟ والقصور العقلى مفروض عليها !.

كما يستحيل أن تدرى شيئًا عن قضايا أمتها مع الصهيونية والصليبية ، فإذا كانت جاهلة بشئون أمتها المحلية فكيف تدرك شئونها العالمية ؟

كأن سعة الأفق وحسن التصرف أمسيا وقفا على نساء العالم كله عدا المسلمات المحصورات !!.

النساء فى الحضارة الجديدة يغزون الفضاء ؛ ونحن نفتى بأن صلاتها فى بيتها أفضل من الصلاة فى مسجد رسول الله ، ولا بأس أن تختار المكان البعيد عن الأضواء !!.

كان يجب على أهل الذكر أن يصحوا من رقادهم بسرعة ، ويواجهوا الحضارة الحديثة بالبديل الإسلامىِّ الصحيح ، حتى يقفوا الفتنة الهاجمة ، وهى فتنة لا يقفها إلا الإسلام المطبَّق فى عهد رسول الله وصحابته لا الإسلام الخارج من أجواف لا تعى ، ولا تحسن الأسوة الحسنة ...

لقد كافأ رسول الله صلى الله عليه وسلم نسوة خرجن وراء الجيش للقيام بخدمات طبية ومدنية ..

وبايع نساء تحت الشجرة ، ومن قبل فى العقبة الكبرى ، وسره أن بعضهن قاتل الكفار ..

فلماذا يحرص بعض الشيوخ على تصوير الإسلام سجانًا للمرأة وحسب ؟

الأزمة الموجودة الآن فى الأمة الإسلامية أن البعض يريد تخييرها بين أمرين :

إما حبس المرأة فى البيت ، وإما إطلاقها فى الشارع ، وهو تخيير بين أمرين أحلاهما مر !!.

لماذا لا يعرض البديل الإسلامىّ ، لا من عصور الانحراف ، ولكن من عصر النبوّة والخلافة الراشدة ؟؟

إن الإسلام مهدَّدٌ بهزائم مخوفةِ العواقب أمام الغزو الثقافى والغزو العسكرى ، ولن يغنى عنه كتاب يقعون على الكتاب والسنة كما يقع الذباب على العسل فتعافه النفوس ..

إن هناك دعاة سوء يُحشَرون يوم القيامة فتانين لأنهم يؤذون الله ورسوله بسوء تصويرهم للإسلام فى هذه الأيام كأن وظيفتهم الصد عن سبيل الله .

* * *

محنة عبادة الذات

قد يغضب المرء ويشتد غضبه لأنه لا يعرف الحقيقة ، فإذا عرفها هدأ ولان كلامه ! إن الجهل يكمن وراء كثير من مساوئ الأخلاق ، وعوج المسالك وانتقاص الآخرين !.

وعلاج الخلل هنا سهل ، لأنه لا يتطلب إلا تعريف الجاهل وكشف النقاب أمامه عما لا يراه .. المشكلة المحيرة أن يتمادى المرء فى خطئه بعد أن استبان له الصواب ! كأنه لم يستفد شيئًا من العلم الذى أتاه .. !.

يظهر أن بعض الناس يعانى من داء دفين فيه ، لا يشفيه العلم مهما كثر ، بل ربما أضره ، وزاده انطلاقًا إلى ما يهواه ، ولعل هذا يفسر ما نقرؤه أحيانًا من إسفاف لقوم ينتمون إلى أوساط علمية كبيرة !.

فى مقال للدكتور عوض منصور طالعت أخبارًا مستغربة لأناس مرموقين ثبتت عليهم جرائم علمية لا تليق ، قال :

«ومن المؤلم جدًا أن أحد هؤلاء المزورين شاب عربى من الأردن ، واسمه

الدكتور إلياس السبتى (٢٧ عامًا) ، والذى ذكرت عنه مجلة «ساينس» فى عددها الصادر فى حزيران ١٩٨٠ ، أنه «سطا كالقرصان على سبعة بحوث لغيره ونقلها كلمة كلمة ، ثم نشرها باسمه فى مجلات علمية مختلفة» !.

والدكتور السبتى طبيب غادر الأردن عام ١٩٧٧ إلى أمريكا ، وحصل على الدكتوراه من جامعة فرجينيا ، وقد تمكن من نشر ٦٠ بحثًا فى ١٩٧٩ وحدها ، وعندما اكتشف أمر بحوثه السبعة المزورة طرد من جامعة فرجينيا ، وطلب إليه الاستقالة من برنامج كان مشرفًا عليه فى كلية الطب بجامعة بوسطن .

واعترفت أشهر كليتين للطب فى أمريكا وهما (جون هوبكنز وهارفارد) بوقوع تزوير لكثير من نتائج الدراسات الطبية التى قام بها أحد العلماء العاملين فيها ! !.

تمكن أحد الأساتذة المميزين من نشر ٤٠ بحثًا تحت اسمه ، مع أن جميع هذه البحوث قام بها زملاؤه فى العمل ، لدرجة أنه نشر فى إحدى المرات مقالاً باسمه وحده قبل أن ينشره مؤلفه الأصلى ! !» .

من قديم قرر المحققون أنه لا تلازم بين المعرفة والفضيلة ، وإن كان العجب لا ينقضى من تورط العارفين فى خطايا لا تتوقع منهم !.

عندما انتقل المسلمون من مكة إلى المدينة انتظروا من بنى إسرائيل شيئًا من البشاشة والسماح ، فهم أهل كتاب ، وإذا ضنّوا بمحبتهم فلن يضنوا بمهادنتهم ! ولكن اليهود كانوا عند أسوأ الظنون ، وكان كيدهم للمسلمين أشد من كيد المشركين لهم .. ونزل القرآن الكريم يصحح للمسلمين مشاعرهم الساذجة «أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ» ؟[1] .

عندما تتحرك النفس الإنسانية بالحقد وتدور على محور هواها فلن يحجزها شىء ...

---

(١) سورة البقرة : ٧٥ .

كان إبليس يعرف الكثير ، ورأيه فى نفسه أنه أحق بالاختيار أو الاستخلاف من آدم .

كان يرى معدنه أصلب ، وطاقته أوسع ، وأنه فى أى نزال مع آدم وذريته سوف ينتصر بمكره ودهائه ..

ولذلك قال لله : « قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا »(١) .

وقد ضحك من آدم وأخرجه من الجنة ! ولا يزال يستغفل الكثير من أبنائه ويسدّ عليهم طرق النجاة ..

ونسى إبليس الحقيقة الأولى فى علاقة الكائنات كلها برب العزة ! نسى أن الله يقدم عبدًا منكسرًا يرنو إليه بأمل ، على عبد شامخ ينظر إلى نفسه بإعجاب !.

نسى أن عاصيًا يتوب أحب إلى الله من طائع متكبر..!.

إن كلمات آدم وزوجته أمام الله « قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ »(٢) أكسبتهما الرضوان الأعلى ، أما كلمة إبليس « قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ »(٣) فقد هوت به إلى أسفل سافلين ..

لا قيمة للعلم الواسع إذا لم تصحبه عبودية تامة لله .. أما عبادة الذات فقد تكون شر أنواع الشرك ، ولذلك أجمع علماؤنا على أن معاصى القلوب شر من معاصى الجوارح .

على أن منطق إبليس من أوله إلى آخره ملىء بالإفك والغباء ! إن معدنه ليس أشرف من معدن آدم ، فآدم أوتى علمًا عجزت عنه الملائكة ، وهو دون ذلك كثيرًا ، وآدم يبنى وينشئ ، أما هو فيهدم ويدمّر ، وليس الذى يبنى كمن شأنه الهدم ..

---

(١) سورة الإسراء : ٦٢ .

(٢) سورة الأعراف : ٢٣ .

(٣) سورة ص : ٧٦ .

ربما مكث الفلاح عدة شهور فى حقله حتى يجعله مهتزًا بسنابل القمح ، وقد يجىء فاتك يشعل النار فى الثمار فيأتى فى بضع دقائق على الأخضر واليابس فأى الرجلين أشرف ؟

وشىء آخر لابد من تقريره ، من الذى ألهم الذكىّ ذكاءه ، والعبقرىّ عبقريته ؟ إنه الله ! فكيف يقف الآخذ المتلقى متحديًا للمعطى ولىّ النعمة ؟؟ إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم «يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ »[1] .

وقد هُدى ابن عطاء الله السكندرى إلى هذا المعنى عندما قال : «مَن مدحك فإنما مدح مواهب الله عندك ، فالفضل لمن منحك لا لمن مدحك» .

إن ولدا لآدم عرف الحقيقة التى تاه عنها المتكبر الطائش ، وقد استكبر إبليس على آدم ثم اشتغل بعد قوّادًا لبعض ذريته ! فما أحقر المصير القريب والبعيد !.

ومن عجب أن «عبادة الذات» انتقلت من الشيطان الأكبر إلى بعض المتدينين الذين يدورون حول أنفسهم ، وبدلاً من أن يمكنوا الدين من إصلاح عيوبهم يفسدون هم العبادات بالرياء وإرضاء النفس ، وقد جاء فى السنة أن هؤلاء أول من تسعر بهم النار يوم القيامة ، ونعوذ بالله من علم لا ينفع ..

رأيت بعض أدعياء التدين فوجدت فى ملامحهم جهامة ، وهبّت من شمائلهم ريح منفرة واستطالة على الناس بغير شىء ...

الدين تواضع لله ، ودماثة فى الأخلاق ، واستغفار للفرد والجماعة ، وافتقار ظاهر وباطن إلى رحمة الله ، وهؤلاء بقليل من العلم وكثير من الدعوى قطعوا تسعة أعشار المسافة إلى الجنة ، ثم نظروا للآخرين شزرًا ..

إن وجدوا خيرًا تجاوزوه ، وإن وجدوا شرًا ضاعفوه ، أو هم كما قال الشاعر :

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحًا عنى وما سمعوا من صالح دفنوا

---

(١) سورة آل عمران : ٧٤ .

هل هم مستكبرون بعلم؟ نظرت فى علمهم فرأيت عقولهم صفرًا من علوم الكون والحياة ، وصفرًا كذلك من جملة العلوم الإنسانية ، أما علوم الدين فربما برعوا فى زاوية ضيقة من زوايا الفروع الفقهية التى لا ترجح كفة يوم الحساب .. وما وراء ذلك خواء تعصف فيه ريح الوحشة ...

ما أشد بلاء أمتنا بهؤلاء الناس !.

* * *

مكتبة الإسكندرية والغزو الثقافى

فى هذه الأيام يستغل الغزو الثقافى الأقمار الصناعية لتسميم أفكارنا وتدويخ أمتنا ، وكان يجب أن تتضافر الجهود لتقوية الدفاع وإحباط الهجوم ، وإذا ماجن مغرور يقول لك : يجب إعلان الحرب على الجَهْميّة !!.

لقد تغير العدو ، وتغير الميدان ، وتغيرت الأساليب ، وأضحت خدمة القرآن والسنة بحاجة إلى فكر معاصر ونظر أبعد !.

لكن داء أهل الكتاب الأولين تسلل إلى نفر من الناس يجمعون بين ضحالة العقل وقساوة القلب ، فلا تسمع منهم إلا هجرًا ولا ترى إلا كبرًا !!.

كنت مع صديق لى أغشى مجلس علم ، فإذا أحد هؤلاء يقول لى : ألا تزالون فى الأزهر تدرسون الأديان الثلاثة ؟ يعنى مذاهب الفقهاء أبى حنيفة ومالك والشافعى !! فتأملت وجهه وتألمت لحال الأمة ...

إن الصحوة المعاصرة يجب أن تخلو من هؤلاء حتى تستطيع الانطلاق .

الجامعات الأوروبية والأمريكية تدرس الإسلام دراسة بالغة السوء ، مناهج محورها الجهل المركب ، وأساتذة إما يهود رسب فى أفئدتهم حقد القرون ، وإما ملاحدة يحاربون الوجود الإلهى الحق ، كأنما يدافعون عن حياتهم ؛ وإما صليبيون بينهم وبين محمد ثأر لا يطفئه إلا الدم ...

أما البحث الحر المحايد النزيه فلا وجود له ! وفى هذه الأيام يوجد تعاون بين قسم الدراسات الإسلامية بالسوربون ، وبين المسئولين عن العلوم والآداب

والفنون عندنا على إخراج كتاب الفتوحات المكية فى بضعة وثلاثين سفرًا فى نسخ أنيقة فاخرة ، لتيسير تداولها بين الناس ، ولنشر فكر ابن عربى الذى تحتاج إليه أوروبا فى هذه الأيام[1] ...

ورئيس قسم الدراسات الإسلامية فى باريس رجل أعيانا ولاؤه للغرب وكرهه للكتاب والسنة ، ونشاطه المحموم ضد العرب والمسلمين ! !.

وقد كشفنا خبيئة الدكتور أركون فى كلمات سابقة ، فضحنا فيها مواقفه ضد الإسلام جملة وتفصيلاً .

والسعى لإحياء أفكار ابن عربى جزء من تضليل أمتنا ، وتعتيم الرؤية أمامها ، أو هو عرض لدين مائع يسوِّى بين المتناقضات ، إذ قلْب ابن عربى ـ كما وصف نفسه ـ دير لرهبان ، وبيت لنيران ، وكعبة أوثان ، إنه تثليث وتوحيد ونفى وإثبات ...

وماذا تقول فى رجل يفسر قوله تعالى : «إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ »[2] (بأن المقصود هم الأولياء الخلَّص ، ومعنى كفروا ستروا محبتهم لله (!) ، وختم الله على قلوبهم فلا يدخلها غيره ، وعلى سمعهم فلا يسمعون إلا منه ، وعلى أبصارهم فلا يرون إلا نوره ، ولا يؤمنون بك يا محمد » ! !.

هذا الكلام الغث هو قرة عين الصليبيين وأمثالهم ، وهو ما يراد الآن نشره على أوسع نطاق بتعاون بين القاهرة وباريس ! !.

إننى أسأل : ما علاقة المجلس الأعلى للعلوم والفنون بكتاب هذا موضوعه ؟ ولماذا لم يقل لرجال السربون : اتصلوا بالأزهر ليرى رأيه ؟ ! !.

إن علماء الأزهر فى العصر الأيوبى أنكروا تفكير هذا الرجل ، وحكموا

---

(١) فى بيروت مؤسسة تقوم على ترجمة ونشر الأعمال الكاملة لأركون حتى تتوغل الثقافة المغشوشة فى أقطارنا . وتمنع الاستقرار العلمى ! وهكذا يجد الغثاء طريقة للنماء .. ! !.

(٢) سورة البقرة : ٦ .

بكفره ، وأودع السجن ليلقى جزاءه ، ولكن أصدقاءه نجحوا فى تهريبه ...

والذى أذكره أن الملك الكامل ـ وموقفه من الصليبيين يشبه موقف السادات من الصهيونية ـ هو الذى أعان على إطلاق سراحه ليبقى مع غيره من زعماء الباطنية يفتتون الجبهة الداخلية ، وينشرون الخرافات القاتلة لعقائدنا وأخلاقنا ، ويعجزوننا عن مقاومة الغارات السياسية والعسكرية المترادفة علينا ...

واليوم ـ مع اشتداد وطأة الغزو الثقافى ـ يراد إحياء ابن عربى ، وليكن هذه المرة عن طريق المؤسسات العربية بالقاهرة .

إن فرنسا تمكر بنا ، وإن الدور التبشيرى لجامعاتها مستمر وإن بدا فى صور شتى ، وقد بلغنى أن ساستها الجدد ـ وإن كانوا اشتراكيين ـ قالوا : إن ما أعطاه «ديجول» للعرب عقب هزيمته فى الجزائر ، سوف نسترده بطريق الغزو الثقافى اللين الخادع !.

فهل نستيقظ قبل فوات الأوان لمواجهة هذا الغزو فى كل ميدان .. ؟

إن تتابع هزائمنا الثقافية يجعلنى أتشاءم من نتائج المعركة الدائرة الآن بين الإسلام والهاجمين عليه والمشوِّهين لسمعته ! فدوائر المعارف المؤلفة فى الغرب تنسج الأكاذيب عن تاريخنا ونبينا ، وعقائدنا وتعاليمنا .. ولا يزال نفر من علماء الدين غرقى فى خلافاتهم التافهة لا يتيقظون للدفاع عن دينهم المهدّد وسمعته المجرَّحة ...

ماذا تقول إذا قرأت فى دائرة المعارف الفرنسية للعلامة «لاروس» : «إن محمدًا كان كاردينالا يطمح إلى تولى منصب الباباوية ، فلما عجز عن تحقيق رغبته اختلق دينًا جديدًا يشبع به أطماعه فى الرياسة ..» ؟!.

إذا كان هذا كلام علمائهم فماذا تنتظر من الجهال ؟

من أجل ذلك اعترانى تفكير عميق عندما علمت أن الجهود دائبة لإعادة بناء مكتبة الإسكندرية ..

إننى ـ من معرفتى بدينى ـ أحترم مصادر المعرفة ، وأرحب ببناء المكتبات ، وأسعى إلى حراستها وتخليدها ، وأقدر الجهود التى تبذل فى ذلك .

وليس يعنينى طراز المبانى ونوع الهندسة إن الذى أهتم به هو الكتب التى ستعرض على القارئين ، لقد سمعت أن المكتبة سوف تصور الثقافة السائدة فى البحر المتوسط .. حسنًا ، فى شمال هذا البحر اليونان والرومان ، واللاتين فى فرنسا وإسبانيا ، وفى جنوبه المغرب الكبير ومصر ، وفى شرقه فلسطين المحتلة ولبنان المحتلّ ، والشام وتركيا العلمانيتان ...

ولقد قامت المكتبة القديمة وبادت ولا صلة لها بيهودية ولا نصرانية ولا إسلام ، كانت تمثل الفكر السائد فى عصرها الأول ، فهل ستكون المكتبة الحديثة إنسانية عامة تعرض علوم الكون والحياة ، والتقدم الباهر الذى بلغه عصرنا الحاضر فى الكشوف المعجبة لأسرار هذا العالم وقواه ؟ ليكن ..! ولعل ذلك يرضينا جميعًا .

إن الذى أحذر منه أن تكون المكتبة جسرًا لفلسفات بالية ، وتعصبًا وضيعًا لماض كان الأوروبيون فيه لا يمثلون شيئًا ذا بال من خصائص الإنسانية الرفيعة ، ويريدون اليوم أن يستأنفوا جحودهم لنا واجتراءهم علينا ..

وما سمعته عن أجنحة المكتبة المقترحة يثير شكوكًا كثيرة ..

إن الإسلام اليوم دين جريح ، تنتمى إليه شعوب أغلبها من العالم الثالث ، ولا يساوى تخلفها المادى إلا تخلفها المعنوى ، وإذا كانت الأسفار التى تملأ الدواليب والرفوف من أنواع دوائر المعارف الأوروبية الحالية ، فمن الخير ألا تقوم هذه المكتبة ...

أعلم مقدمًا ما سيقال عن ثمانية قرون من تاريخ الإسلام فى الأندلس ، وأعلم مقدمًا ما سيقال عن تاريخ الإسلام فى وادى النيل والشمال الإفريقى كله ، وأعلم أن هناك جهودًا رهيبة لإحياء حزازات عرقية ضد رسالة محمد ؛ والكثرة الكبرى من السكان الذين اعتنقوها ..

ومن ثم فإننى أطالب بأن يكون تمثيل الإسلام عادلاً وواضحًا عند تأسيس مكتبة تصور ثقافة البحر المتوسط على اختلاف العصور ، إننا يستحيل أن نهادن الغزو الثقافىّ فى أية صورة يبدو فيها .

شعـاع من عظمـة الله

مصنع السيارات فى أوروبا وأمريكا يخرج السيارة قوية الآلات أنيقة المظهر ، ثم تنقطع صلته بها بعد بيعها ، فليس يدرى مَنْ راكبها ؟ ولا كم ميلاً قطعت ؟ ولا أين تنطلق أو تتوقف ؟ لقد صنعها وغابت عنه وغاب عنها ...

هل العالم كله ـ وهو صنع الله الذى أتقن كل شىء ـ يسير على هذا الغرار ؟ اكتسب وجوده من خالقه ثم سار وحده مستقلاً بنفسه ؟ كلا كلا ! ! .

إن الإشراف الأعلى يكتنف حركاته وسكناته من جميع جهاته ، وقد اتفق المؤمنون على أن الكون يستمد بقاءه ونظامه لحظة فلحظة من رب العالمين .

فالقمر يدور حول الأرض ليست له عيون يبصر بها المسار ، ولا به خزانات وقود يقطع بها الطريق ، إنما يشرق ويغرب بهداية خالقه ..

والأرض التى نحيا فوقها مهاد جدير بالدراسة بدءًا من قشرتها اليابسة إلى مركزها الحافل بالمواد المصهورة والسوائل الحارقة ، إن العلم الإلهى يخترق أمعاءها ويضبط كل ذرة فيها لو شاء زلزلها فهلكنا ، أو ثبّتها فبقينا ..

وفى القشرة الأرضية ألوف من أنواع النبات بين أزهار وحشائش وحبوب ، كل نبتة فيها تحت سمع الخالق وبصره منذ وُضِعَت البذرة إلى أن تم الحصاد ، وكذلك سائر الأحياء ..

وإلى هذا يشير القرآن الكريم ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ (١) .

إن بيوتنا تضاء من تيار كهربى يجىء من خارجها ، وقد قرر العلماء أن وجود العالم ليس من ذاته ، وإنما هو مفاض عليه من البديع الأعلى ، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (٢).

---

(١) سورة فصلت: ٤٧.

(٢) سورة فاطر: ٤١.

أعرف أنه ليس فى هذا الكلام جديد ، وما أحسب مسلمًا يمارى فيه ! لكن بعض الناس تساءل : كيف يدير الله العالم ؟ كيف يدبِّر أمره ؟ كيف يُضحك ويُبكى ويميت ويحيى ؟ كيف تتعلق صفاته بالمجرات الكبيرة فى الوقت نفسه الذى تتعلق فيه بالذرَّات التى لا تكاد تبين ؟

إنه من الممكن أن أحيا دون الاشتغال بهذه الأسئلة ! فأنا أحيا دون أن أعرف سر الروح السارية فى أوصالى ، وأحيا دون أن أعرف سر الضوء الذى يغمر الآفاق ! هذه أسئلة يدفع إليها الفضول والتطاول ..

والذين اشتغلوا بها وبنوا عليها نتائج مهمة انتهوا إلى متناقضات ، فمنهم مَنْ دان بوحدة الوجود ، وظن علاقة الله بالكون كعلاقة الروح بالجسد وهذا جنون ! وقع فيه بعض المتصوفة ..

ومنهم من ألغى قانون السببية ، وظن أن الإيمان لا يصح أو لا يتم إلا إذا قلت فى كل شىء الفاعل هو الله !.

فإن أفهمته أن هناك شبكة من الأسباب ينتظم بها الوجود ، قد تكون غطاء للقدرة العليا ، ولكن القادر الأعلى قد ناط بها الحياة والموت ؛ والحركة والسكون ، ظن بك الظنون ...

إن القرآن الكريم تحدث عن الأسباب التى تكمن وراء ما نرى وما لا نرى من الموجودات ! يقول تعالى : « وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا »(١). ويقول: «هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ »(٢).

وقد تقرر فى تجاربنا أن الماء يروى ، وأن النار تحرق ، وأن السكين يقطع وأنه

أشاب الصغير وأفنى الكبير كرُّ الغداة ومرّ العشىّ !.

وقد نسب القرآن الكريم الأعمال الإلهية إلى الأشياء التى لا تعى ، «كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ..»(٣) وقال العلماء: إن هذا على سبيل المجاز

(١) سورة النبأ: ١٤ــ١٦.
(٢) سورة النحل: ١٠.
(٣) سورة الكهف: ٣٣.

والفاعل الحقيق هو الله سبحانه ، والأسباب كثيرة ومعقدة ومتراكبة ، ونحن ننسب النتائج إليها من باب الإلف والحسّ ، فلابد فى الذرية من زواج ، ولكن ما يصنع الزوجان ؟ إنهما عند التأمل لا يخلقان شيئًا ! وهل التراب والماء حول بذرة القمح يصنعان السكر والنشا والعناصر الأخرى فى حبة القمح ؟

إنه فى ذراع من الأرض تنبت شجيرات متجاورة للورد والنعناع والقرنفل والجرجير ! ما الذى هدى التراب إلى التفاعل مع كل شجيرة حتى تنضج وفق خصائصها وطعومها وروائحها ؟

الواقع أن غشاء الأسباب قد يرقّ جدًا أمام بعض العيون فلا ترى إلا الصفات الإلهية ، وقد يغلظ أمام عيون أخرى فلا ترى إلا الأسباب الحسية ...

وبعد أن تؤمن بأن الله خالق كل شىء عبِّر عما ترى بما تريد فلا حرج .. وقد تمهّلت كثيرًا فى تصديق ناظم العقائد عندنا :

ومن يقل بالطبع أو بالعلة فذاك كفر عند أهل الملّة
ومن يقل بالقوة المودعة فذاك بدعىٌّ فلا تلتفت

وربما قال بعضهم : إن الجاذبية الأرضية بطبيعتها تضمّ الأشخاص والأشياء إلى هذا الكوكب ! وتستردّ ما يحاول الإفلات منه فتسقطه !.

لا حرج عليك أن تقول هذا مادمت مؤمنًا بقوله تعالى : « أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا »[1] هذا الكفت وهو الجذب والضمّ من صنع الله وحده، وقانون الجاذبية تصوير له ، فإذا نسبت إليه ما يقع فلا حرج والتعبير مجازى .. وقانون الأجسام الطافية ثابت ، إنه معرفة لبعض خصائص الماء فى حمل الأوزان والأحجام ، وهو من دلائل القدرة العليا « وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ »[2] تستطيع أن تنسب سبْح السفن إلى السبب أو إلى خالق السبب ، متنقلاً بين الحقيقة والمجاز، والمهم اليقين بعمل الله « ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ »[3].

---

(١) سورة المرسلات: ٢٥ــ٢٦.
(٢) سورة الشورى: ٣٢.
(٣) سورة الأعلى: ٢ــ٣.

قال لى أحد التلامذة : لا مجاز فى القرآن ! فقلت له : أين الأغلال فى أعناق الكافرين الذين قال القرآن عنهم : « إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ » ؟[1] وأين السدود التى تحيط بهم من خلف ومن أمام فى قوله سبحانه : « وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ »[2] ؟

يا بنى إن المجاز موجود فى الكتاب والسنة ؛ وآداب العرب ، بل موجود فى ألسنة الناس كلهم من عجم وعرب ..

الغريب أن الطالب شرع يقاوم بما لا يُفْهَم فانصرفت عنه حتى لا يتهمنى بالكفر ، وما أيسر ذلك على بعض الناس !.

إن عمل القدرة العليا متنوع وراء صنوف الخلق ، إن هذه القدرة وراء العقل المفكر ، ووراء الغريزة المهتاجة ، ووراء النبات الذى يشق التربة صعدًا ، ووراء الجماد الذى لا يتحرك إلا أن يحركه الآخرون ..

وبعض الناس يقول : مادامت القدرة وراء الشجر والحجر فهما سواء ! ! ومادامت وراء البشر والبقر فهما ـ فى فقدان الإرادة المستقلة ـ سواء ! !.

وهذا فكر مردود ... فإن الله وزع الخصائص على صنوف الخلق ، وهدى كل نوع إلى أداء وظيفته ، وجعل الإنسان مسئولاً برأسه عن نفسه ، ولم يجعل الحيوان كذلك .

والإنسان بطبيعته طُلَعَةٌ إلى استكشاف المجهول ، ويود لو يعرف كيف تتفاوت القدرة ، وتتفاوت الأقدار وراء أنواع المخلوقات ، فهل جهازه العقلى يقدر على اكتناه ذلك ؟

لقد حاول إبراهيم عليه السلام أن يعرف شيئًا من ذلك عندما قال لله : « رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ »؟[3].

---

(١) سورة يس: ٨.

(٢) سورة يس: ٩.

(٣) سورة البقرة: ٢٦٠.

فم أجيب ؟ لقد رأى بالفعل أن الله أحيي الموتى ؛ إذْ عادت الطيور المذبوحة إلى الحياة مرة ثانية ! فهل عرف : كيف ؟ إن ذلك فوق طاقتنا .

إننا نحن البشر خلقنا لأداء رسالة كبيرة على ظهر الأرض ، ومُنحنا حرية الحركة يمنة ويسرة ، وقيل لكل امرئ أنت صانع مستقبلك ، إما إلى جنة وإما إلى نار ، فهل يستطيع نابغة أو بليد أن يعرف كيف يتم التنسيق بين عملنا المستقل ، وإشراف الله على حياتنا ؟ وإدارته لأجهزتنا ؟ ما يستطيع اكتناه ذلك بشر وإن كان حقًا ، وعجزُنا عن ذلك لا يعني أن الحجر والبشر سواء فى الوجود والوظيفة والغاية المرسومة ..

وفى ذلك يقول أبو حنيفة رضى الله عنه : «هذه مسألة قد استعصت على الناس فأنى يطيقونها ؟ هذه مسألة مُقْفَلَةٌ قد ضل مفتاحها ، فإن وجد مفتاحها علم ما فيها ! ولن يفتح إلا بمخبر من الله يأتى بما عنده . ويأتى ببينة وبرهان .

وقد قال القوم من أهل الجدل(*) فى هذه المسألة : أما علمتم أن الناظر فى القدر كالناظر فى شعاع الشمس كلما ازداد نظرًا ازداد حيرة ! ! » .

ويقول أستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة : لقد اندفع العلماء فى هذه الحومة من الجدل ، وتباينت أقوالهم ، واختلفوا ، وكان اختلافهم فى أمر فيه متسع للخلاف ، ولم يكن فى أمر معروف من الدين بالضرورة ، إنما كان خلافًا فلسفيًّا على هامش الاعتقاد وليس فى لبّه ، وهو على أى حال اختلاف يضلُّ السارى فيه ، ولا يجد عَلَمًا من أعلام الهداية ينتهى عنده .

ولقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالإيمان بالقدر خيره وشره ، وقال عليه الصلاة واسلام فيما روى عنه : «كل شيء بقضاء وقدر حتى العجز والكيس»(١).

وكان الصحابة يؤمنون بقدرة الله تعالى ، وبأنه خالق كل شىء ، ويؤمنون بالقدر ولا يخوضون فيه ، بل إذا جاء القدر أمسكوا ، ولكن الذين يريدون أن يثيروا الحيرة الفكرية بين المسلمين كانوا ولا يزالون يثيرون الكلام فى القضاء

(*) بعد ما أعياهم البحث.

(١) رواه مسلم وأحمد.

والقدر ، وصلته بالتكاليف والثواب والعقاب ، ولقد سأل بعض الناس الإمام علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : عن القضاء والقدر وصلته بالجزاء ، فأجابه علىّ بما يزيل الشبهة ، من غير خوض ، ثم ختم كلامه بقوله : «إن الله أمر تخييرًا ، ونهى تحذيرًا ، وكلَّف تيسيرًا ، ولم يُعْصَ مغلوبًا ، ولم يرسل الرسل إلى خلقه عبثًا، و لم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً، ﴿ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾»[1].

وإن الذى يستخلص من كلام الإمام علىّ بن أبى طالب الذى نقلناه آنفًا : أن علينا أن نطيع الله تعالى فيما أمرنا به ، وأن نجتنب ما نهانا عنه ، وحسبنا فى ذلك أننا نعلم ونحسُّ ونشعر بأننا مختارون فيما نفعل ، وأننا فى استطاعتنا أن نفعل ، وألّا نفعل ، وأنه يكفى ذلك لنشعر بما يجب علينا وما لا يصح لنا ، إن الاشتغال عن ذلك بتعرُّف أمر مُغلق ، قد ضاع مفتاحه لا يجدى فتيلاً .

ولقد قال فى ذلك الإمام الصادق رضى الله عنه : «إن الله تعالى أراد بنا شيئًا ، وأراد منا شيئًا ، فما أراده بنا طواه عنا ، وما أراده منا أظهره لنا ، فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عمّا أراده مِنّا» ؟

فهو رضى الله عنه يندِّد بالذين ينصرفون عن التكليف إلى الكلام فيما كتبه الله علينا من خير أو شر ، وإن العصاة هم الذين يبرِّرون عصيانهم بما كتبه الله تعالى ، ومنهم الذين يثيرون هذه القضية ، ليضعفوا العزائم عن العمل ...

لقد صور الأشعرىّ المسئولية الإنسانية عن العمل بكلمة «الكسب والاكتساب» وصورها المعتزلة بكلمة «خلق الأفعال» .

ويقول المشير أحمد عزت فى كتابه «الدين والعلم» : إن هذه العناوين الكلامية تختلف ألفاظها ، وتتقارب دلالتها ، ولا معنى للانقسام حولها والتنابز بالألقاب ..

والرجل صادق فى حسه ، وما كان ينبغى أن تتألف فرق لخلافات شكلية فى أغلبها ...

---

(١) سورة ص: ٢٧.

وإن كنا نلحظ أن الأشاعرة أكثر مع الله أدبًا ، فهم يثبتون له وصف الحكمة ، ولا يقولون يجب عليه فعل الصلاح والأصلح ، ويفردونه بصفة الخلق ، ولا يقولون عن الإنسان إنه خالق أفعاله ، وإن كان مسئولاً عنها ...

ويظهر أن تأثر المعتزلة بفلسفة الإغريق وراء هذا الشطط ، وليت المسلمين ما قرؤوا هذه الفلسفة ولا صححوا لها ترجمة ، إن إثمها أكبر من نفعها .. ومن الخير أن نعود إلى ينبوع القرآن نستق منه ونستفيد ، فذاك أولى وأصحّ ...

ليس الذى يبنى كمن شأنه الهدم

ذُخْرى يوم الحساب أن الله ورسوله أحب إليّ مما سواهما لقد تسلل شعاع من عظمة الله إلى نفسى ، فأبصرت قصدى ، وأُوتيتُ رُشدى ، ورجوت غفران الله لخطئى وعمدى ! !.

إن هناك سؤالاً لابد أن يواجه كل إنسان ! أيكون مَحْياه لنفسه أم لربه ؟ فمن أسلم وجهه لله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ، ومن قرر أن يكرس عمره لإشباع لباناته وإدراك مآربه فقد خاب وخسر...

إن إمام الأنبياء استقبل هذا التوجيه الإلهى وعمل به ، وهو « قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ »[1].

ومن أجل ذلك أخبرنا عليه الصلاة والسلام أن أول ثلاثة تُسعَّر بهم النار ـ ونعوذ بالله من الخذلان ـ قارئ ومجاهد ومتصدق ـ وهم بعللهم الخفية يعكرون رونق الدين ويضللون سيرته ..

ودورانهم حول أنفسهم يزيّن لهم ظنون السوء بالآخرين ، والطعن فى أحوالهم وأعمالهم ..

ومن رؤوس هؤلاء قتلة عمر وعثمان وعليّ رضى الله عنهم ، فقد اتهموهم بما

---

(١) سورة الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣.

هم منه براء ثم استباحوا دماءهم ، وكانت جراءتهم عليهم بالغة ، ما احترموا شيخوخة ولا سابقة ولا علمًا ، ولهم فى ذلك سلف سيئ ! الجهول الذى قال لرسول الله : اعدل فهذه قسمة ما أريد بها وجه الله ! إنه يريد أن يعلِّم إمام الخليقة ، فكيف يقسم ولا يظلم !!.

الإسلام معرفة حسنة لله وانقياد تام لأحكامه ، وافتقار حقيقى لعطائه وتوفيقه ، وانسلاخ عن الأثرة والكبر ، ونظر منصف عطوف إلى عباد الله فلا قسوة ولا جبروت !.

وقد عشت بين المتدينين من هواة ومحترفين ؛ فرأيت عددًا منهم ينسى الأصول ويبالغ فى الفروع ، ويخفى وراء كلمة الإسلام صلفًا يثير الدهشة ، وهو يرى القشة عند غيره ويذهل عن الخشبة فى عينه ..!!.

كان ابن ملجم يرى عليًا جديرًا بالقتل ! أما هو فمن أهل الفردوس الأعلى !!.

وفى تدبّرى للقرآن الكريم والسنة الشريفة رأيت الإسلام يبنى الشخصية الإنسانية على سلامة الفطرة وأصالة الفكر ، فمن فسدت فطرته وغامت فكرته هبطت عبادته، فما تساوى عند الله شيئاً، «وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ» (١).

وعلى هذه الأسس يقوم الإصلاح الحقيقى للنفس البشرية .

أنا لا أنتمى إلى فرقة من الفرق ولا أتعصب لمذهب من المذاهب ، وإنما أنظر بأدب وتواضع إلى المذاهب الإسلامية كلها ، مدارس المفسرين والمحدثين والفقهاء والأصوليين والفلاسفة والمتكلمين والمتصوفين... وأبحث عن الحق بتجرد .

وفى مجال إصلاح النفس انتفعت برجلين من مشارب مختلفة ، أولهما ابن قيم الجوزية ، والآخر ابن عطاء الله السكندرى ، وما ألزم أحدًا برأيى ، فإن الجامع الأول والأخير بين المسلمين أجمعين هو كتاب الله تعالى .. ثم من استبطن هذا

---

(١) سورة البقرة: ٢٦٩.

القرآن خلقا له ، وبلغ الأوج فى هداية الناس به وتربيتهم بحكمته .. المثل الكامل لسائر البشر محمد بن عبدالله ﷺ.

وعصرنا الحاضر أحوج العصور إلى الحكمة القرآنية والسيرة النبوية فى التهذيب وجهاد النفس والهجرة إلى الله من عالم الشهوات الجليّة والخفيّة ...

ألا فلنعلم أن من عمى عن وجه الله ، واستيقظ من نومه ليتحرك حول نفسه وأهوائه ليس للآخرة فى وعيه حساب فهو هالك ، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[1].

وذكر الله أكبر من أن يكون حركة شفتين ، إنه يقظة قلب ورؤية آيات ، ونصح خالص وهضم للنفس وإعظام لله وحده ...

من وثق بما فى أيدى الناس وارتاب فيما بيد الله كيف يكون مؤمنًا ؟

من أحبّ أحدًا أكثر من حبه لله كيف يكون مؤمنًا ؟ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[2].

من لم يخامر قلبه وجل من الله ، وإنما يخاف فقط فوت منفعة أو وقوع ضرر كيف يكون مؤمنًا ؟ ألا يدري قوله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾[3] وقوله: ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾؟[4].

إن الإسلام ينشعب شعبتين : إحداهما تمس القلب لتنشئ فيه مشاعر الرغبة والرهبة ؛ والصبر والشكر ؛ والتوكل والحب ، إلى آخر ما أفاض المتصوفة فى شرحه ، وامتلأت كتبهم به ، وفى طليعتها كتابات ابن عطاء الله وابن القيم وغيرهما من السابقين واللاحقين ...

والشعبة الأخرى تتصل بالعقل لتغرس فيه عقائد وأحكامًا شتى ، وقد غصت

---

(١) سورة يونس: ٧-٨.
(٢) سورة البقرة: ١٦٥.
(٣) سورة البقرة: ٢٣٥.
(٤) سورة البقرة: ٤٠.

كتب الفقهاء والمتكلمين بهذا النوع من المعارف المهمة .. وما تغنى شعبة عن أخرى .

بيد أنى لاحظت أن العوام لهم اهتمامات مثيرة ، فهم يكترثون لوضع اليد فى الصلاة ، أتكون تحت العنق أم فوق الصدر أم على السُّرة !. أكثر مما يكترثون لفريضة الخشوع ، أو لضرورة تدبُّر ما يتلى من قرآن ...

إن المراسم الظاهرة تعنيهم ، وقد يتطاولون على الأئمة لاختلافهم فى هذه الهيآت ، وهذا داء قديم حاول ابن تيمية علاجه فى كتابه ، «رفْع الملام عن الأئمة الأعلام» ، كما حاول أبو حامد الغزالى ذلك فى كتابه : «فيصل التفرقة بين الإيمان والزندقة» .

إن التدين الصورى وراءه أمداد دافقة من القصور العقلىّ والغرور الأعمى ، وقد يدفع إلى اقتراف رذائل منكرة ، وقد جاءنى أحد تلامذتى بشكوى جديرة بالتأمل ، قال لى : إنه كتب دفاعًا عن كتابى الأخير «السنة النبوية» ونشره ، ففصلته المؤسسة التى يعمل فيها ..

وقرأت الدفاع فوجدت الرجل يقول لخصومى : إذا كان قد ساءكم هذا الكتاب ، فهناك عشرات من مؤلفاته تستدعى الرضا ، على نحو ما قال أبو الطيب :

فإن يكن الفعل الذى ساء واحدًا فـأفـعـالـه اللاتى سررن ألوف

لقد التحق الموظف المفصول بعمل آخر اتصل به رزقه !.

وتحدثت مع صديق لى فى القضية كلها فكانت إجابته : لقد نفيت أن وجه المرأة وصوتها عورة ، وأبحت لها ولاية الأعمال الإدارية والسياسية ، فأنت جدير بالنفى من الأرض على الأقل ..

قلت : أهذا دين ؟ قال : سيتحالفون مع الشيطان ضدك !!.

قلت مرة أخرى : أهذا هو الدين ؟!.

كانت نبوءة الرجل صادقة ، وكنت أيضًا صادقًا عندما ساءت ظنونى بعبيد المراسم والأشكال ..